الطوطمية والصنمية

ما هو التقارب بين الطوطمية والصنمية وكيف تتلاقى ؟ وهل انفصلت الواحدة عن الاخرى ؟

محاضرة للدكتور طالب عبد الرضا لطلبة المرحلة الثانية -- قسم علم الاجتماع

تكاد ان تكون فكرة الطوطمية وما بني عليها وما لحق بها ، بجذور غايةً في التأثير ، بل تعدت المحافظة على الجذور الى بناء جديد ومتطور داخل وعينا نغفل عن الشك فيه ، لقد اجتمعت الافكار الانسانية القديمة على اتخاذ الطوطم رمزاً للتقديس يستمر مع الحياة ، لغرض استمداد القوة والعون والتبرك منه ، وكأرث تحرص الثقافة على المحافظة عليه ، وقد درجت العديد من التكوينا ت الانسانية على ذلك ، كأن يتم تقديس الجد الأعلى أو رمز معين وجعله طوطماً خاصةً لتلك المجموعة أو تقديس شيء معين قد نسجت هذه التكوينات خيالاً حوله بما يعود عليه من الفائدة .

عنما نسمع عن الطوطم قد نعتقد بأن ذلك التكوين قد تلاشى بتلاشي العقليات القديمة ، ولم يعد يتلائم مع العقلانية والعلمانية والعولمة والحداثة وما بعدها وما حولها ، وربما بعض من هذا التفكير صحيح ، فالتلاشي قد تم فقط في عدم تداول مصطلح الطوطمية على الاغلب ، إلا أن الطوطم .ومع شديد الأسف . حاضر ومتواجد ومتأصل في كثير من مناحي حياتنا ، بل هو الدافع الى كثير من أمور حياتنا ومسير لها أيضاً .

الشيء الآخر الذي نعتقد بأننا بعيدون عنهُ هو أستفحال ما يسمى بالصنمية دون أن ندرك ذلك ، وقد يتبادر الى الذهن اننا بعيدون عنها ، أما الطوطمية فقد تلاشت ، واما الصنمية فهي تظهر في اوقات محددة ، إلا أن الواقع يقول إن هناك تلاقياً وتباعداً بين هذين التكوينين ، فلا الطوطمية قد زالت من ترسباب أفكارنا الآنية ، ولا الصنمية ضيف دخيل على أفكارنا بل هي من أفكار تفكيرنا وممارسات حياتنا .

يقول الدكتور عبد الجليل الطاهر " إن الأصنام وظاهرتها هو شيوع بعض الافكار والأساطير والافكار المغلوطة التي لا تخضع الى البحث العلمي والمنطق ، يتعصب لها الانسان وتؤثر به ويتحيز لها ، الأمر الذي يشمل كل مناحي حياته الفكرية ، فتقيد عقلهُ وعلاقاته وصلاته ، مع الناس كماً وكيفاً وتقوى وتضعف بحسب الظروف المواتية لها ، وفي كثير من امور حياتنا اليومية وفي دافع البدوية المتعصبة نوعاً ما ، قد

نخلق لنفسنا طوطماً تقوم عليه حياتنا ، بل نمضي وفق مقاسات ما يريده لنا ذلك الطوطم حسب تفكيرنا ولا يختلف عن ذلك اليوم ايضاً في الصنمية ، فنحن نعتقد ان الطوطمية اختفت وربما توجد الصنمية الى أنهما متجذران بقوة في حياتنا الحاضرة ، إن الناس يلجؤون الى التمسك بالاصنام حين يعيشون واقعاً مريراً وبغيضاً ، أذ يضطرون تحت ضغط وبؤس الواقع ان يضحوا بكل قيمة تجعل من الحيوان انساناً في سبيل البقاء – أي انهم يرون إن عبادتهم في الأصنام هو المخرج الوحيد في ازماتهم .

ربما كنا شديدي التمسك بتراثنا التقليدي ، وربما نكون قد اشركناهُ واخذنا بكل محاسنه ومساوئه في حياتنا ، فهل يجوز أن نرضى بذلك لمجرد انهُ نابع من التراث ؟

إن تجليات وتقلبات حياتنا قد جاءت من هذه الالتباسات ، فلا نكاد نقبل بفكرة رفض التراث ولا نقبل بتغيره ولا نقبل بتعديله ، فأصبحنا في تخبط كبير لا نحسد عليه ومن ذلك فقد استمرت طوطمية افكارنا وافعالناوامورنا بسبب الاحتفاض بالتراث بما فيه دون التغيير فيه والتسليم بصحة ما فيه دائماً .

إن التراث ثروة لنا وقد حفل بالكثير من المعطيات والمنجزات التي لو استمدنا عليها بشكل صحيح لما كان ذلك وضعنا ، فالمشكلة تكمن في إننا لم نحافظ على تراثنا ، فبقينا في طور أدعاء الحفاظ عليه ، لكننا دائماً متمسكون بالاسرع والأسهل الى امور أكل الدهر عليها وشرب ونضعها من ضمن تراثنا التليد . فلعبادة وتقديس الأرواح والاشياء لإضفاء نوع من القوة وتحسين الظروف شيء مقبول ، ولكنها قد اسيء فهمها بحيث باتت تشل حياتنا بشكل كبير ، وعقولنا لا تحاول الخروج الى حيز التفكير المنطقي وتخشى ذلك .

إن هذه الطوطمية قد تعاملت مع هذه العقول من علاقة الهيمنة وممارسة السلطة فلذلك الانسان لم يبدع وبرزت فيه الاتكاليه في كل شيء ، فقد القى بأموره على ما خصصهُ لنفسه من طوطم ، فلماذا يفكر ولماذا يبدع ولماذا يجازف ؟ وقد استمرت تلك العقول بهذا المحتوى وزيف الأوهام ما أنهكها ، الأمر الذي ادى الى قوقعة تلك العقول ونزولها الى ادراك التخلف وعدم المواكبة ، فلا هي تستطيع التقدم لخوفها ولا تعرف كيف تتقدم وتقاوم ، إن حدوث خلل في منظومة التفكيرالانسانية معناهُ قصور فكري يلازم فشل المجتمعات التي تنعم بهذا القصور ، وربما مسألة التغيير وتعويد الفكر الخاضع لمثل هذه الاوهام هي مسألة شاقة وتحتاج

الىُ حقب صقل طويلة ، وما دمنا نعيش في زمان ربما تطغى عليه صيحات العقلانية ، فلماذا هذه الصنمية التي ترفض الواقع وتحاول اتخاذ واقع لها مناقض ؟

إن بناء الاوهام والتفسيرات الغائبة عن العقل قد تكون ناشئة من عقم التفكير والاتيان بالجديد ، الأمر الذي يؤدي الى اللجوء الى كل ما هو سهل لا يكلف أفكاراً جادة ، لا يمكن التقوقع في زنانين الخرافة وبناء الافكار غير المنطقية ، فالحياة تسير نحو العقلانية ورؤية الاشيء بعين فاحصة ، فإن بقينا نتخبط بين الطوطمية والصنمية دون أن نشعر بها ، ربما سيقع تفكيرنا تحت مسميات اخرى لها تأثيرات أخطر ، وإن حاولنا قدر الامكان تهذيب عقولنا ونزع كل الاوهام التي رسخت فيها ، فربما قد نحقق الجدية في توازن منظومتنا الفكرية المدمرة ، فالماتضي يجب أن يكون ليس بمعاهدة انفسنا على عدم التفوه بهذه المصطلحات ، فهي غائبة عنالوعي ولا يشعر بها أحد وانما يجب نزع جذورها من تفكيرنا وعاداتنا وتقاليدنل ، فمادامت العقلية الانسانية هي التي صنعت هذه المسميات بأمكانها أيضاً أن تغض النظر عنها وتتلافاها .